وقفة على الدرب

بقلم محمود البدوى

كان الجو صيفا وطريق الاسكندرية الزراعى مزدحما بالسيارات الذاهبة اليها والراجعة منها ... وكانت السيارات الخاصة تمرق كالسهام من بين اللوريات الضخمة المحملة بأكياس القطن وألواح الخشب وفناطيس البترول .

وكان الطريق الممهد كبساط من الديباج يساعد على هذه السرعة ويضاعف منها كلما أحس السائق بان الزمام فى يده .

وكنت مسافرا فى هذا الطريق ساعة الغروب مع أربعة من الركاب ولم اكن أعرف منهم أحدا ، فى سيارة أجرة أخذناها من ميدان المحطة .

وكانت الحرارة شديدة حتى بعد ان غربت الشمس فجلسنا صامتين .. ثم فتح أحدنا الحديث بعد أن تجاوزنا مشارف المدينة وأخذ يتحدث عن ازدحام القطارات المسافرة الى الاسكندرية فى هذه الأيام واستحالة حجز تذكرة فى يوم السفر .

وكانت السيارة تمضى بنا على سرعة ٧٠ كيلو مترا فى الساعة وظروف الحال كلها تدل على أننا سنبلغ طنطا فى الساعة التاسعة والنصف والاسكندرية بعد الحادية عشرة .

ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان .
اذ تعطلت بنا السيارة ونحن على مبعدة سبعة فراسخ من طنطا وحاول السائق اصلاحها بكل وسيلة فلم يوفق ومع ذلك لم ييـــأس وظل يعمل بيـــديه فى جلد عجيب .

وظهر الضـــجر على وجوه الركاب الأربعـــة فنفضوا أيديهم من السائق وأعطوه نصف الأجـــر .. ومر لورى فاستوقفوه وبعـــد محـاورة قصيرة رضى سائقه ان يأخذهم جميعا وانطلق بهم .

وتخلفت عنهم اذ كنت فى الواقع أبغى ركوبة أفضل وفى الوقت عينه سمعت محرك سيارتنا يدور فى نفس اللحظة التى ركبوا فيها اللورى وقدرت أن السائق وضع يده على مكان العطب واننا سنلحق بهم بعد قليل .

ولـكن خاب ظنى اذ كان المـــوتور « يخبط » ثم توقف مرة أخرى .

وقال لى السائق وعلى وجهـه آثار المعركة التى خاضها مع المحرك : ـ لا فائدة فى الليـــل .. والصبح له عينان ... وآسف جدا لهذا العطب الذى يحدث لكل آلة ..

ثم اســـتطرد وهو يرمى ببصره فى الظلمة .. محـاولا أن يستشف معالم الطريق .

ـ عندما يمر لورى سأحاول ايقافه لتركبه اذ أن الســـيارات الخاصـــة لا تقف قط .. وانتظرنا أكثر من ساعة ولم يرض سائق لورى أو عربة خاصـــة أن يقف فى عتمة الليل .

وسألته وأنا أحس بالقلق :

ـ الا توجد قرية على مقربة منا ..؟

ـ بركة السبع قريبة جدا .. وهناك مركز صغير لاصلاح الاطارات على مدى فرسخ واحد .. واذا سرت اليه قد تجد سيارة .. واذا لم تجد السيارة وجدت الشاى والطعام .. انه موقع أحسن من هنا على كل حال .. !

ـ وأنت .. ؟

ـ سانام فى السيارة الى الصباح .. اعتدنا على هذا .. !! وفى الصباح يأتى الفرج ..

ـ ســأذهب وأرى .. واذا وجدت طعاما سأبعث لك بعشائك ..

ـ شكرا ..

ونقدته ما يرضيه من الأجر .

وقال وعلى وجهه الصبر والقناعة :

ـ مع السلامة .. ابعد عن سكة السيارات ..

وسرت وحدى فى الطريق فى ليلة تلمع فيها النجوم والسماء فوقى زرقاء صافية وكان القمر فى المحاق . والعتمة تبدو شديدة لأن الزراعة عاليـــة والأشجار الطويلة على الجانبين تضاعف من خط الظلمة .. ولكنى شعرت بالقوة والانطلاق وأنا أسير فى قلب الطبيعة تحت السماء وبين الحقول . كنت أحس بالحرية التى يبغيها كل انسان وأشعر أن لا سلطان لأحد على اطلاقا .. وانني أدفع الهواء بصدرى وأتحرك بكل حريتى .. وكان الهواء الذى بدأ يترطب يمـــلأ رئتى وينعشنى وعيناى تسبحان فى الظلمة الشاحبة وترقبان السماء الصافية فى تأمل المستغرق بحواســـه فى جمـــال الكون .

• • •

وملت عن طريق السيارات خشية أن أصرع تحت عجلاتها ولا يحس بى انسان وأحسست بأنفاس الزرع وأنا أقترب من الحقول المزهرة على الجانبين كانت الأذرة فوق مستوى كتفى .. والأرض لا تزال حارة .. ورائحة التراب تختلط مع انفاس الحشائش .. ولمحت ضباب قرية عن بعد وبصيصا من النور يتصاعد من كوات المنازل .. فخمنت أنها بركة السبع التى حدثنى عنها السائق .

وكان مجرد احســاسى بأنى أقترب من البيوت ومن أنفاس الحياة حافزا لى على الاسراع فى الخطو .. ولم أشــعر بالخوف وانا أسير وحدى فى الليـــل فى ظلمة مطبقة وسكون موحش .. فقد اعتدت على هذا وألفته .. وفى خلال عشر دقائق من الســير الجاد .. ولم أقابل شخصـــا فى الطريق ولا فلاحا فى الحقل .

وكنت مخففا من كل حمل فلم تكن معى حقيبـــة ومن عادتى أن أذهب الى الاسكندرية هـــكذا لأركب القطار أو السيارة فى الساعة التى أجد فيها أيهما فى متناول يدى ..

وأكسبنى الليل والسير فيه وما فيه من غموض ورهبة شعورا عارما بالقوة . وكنت وأنا أتخطى الحقول وأجتاز مزارع الأذرة والخضر .. أحس بيد الفـلاح القوية فى الأرض .. وأدركت وأنا أتنفس مع أنفاس الزرع لماذا يحس الفـــلاح بحريته كاملة كلما خرج الى الحقل وعرف أن سماء الله هى التى تظله وأرضه هى التى يقف عليهـــــا .. ويعيش من خيراتها ..

وفى تيـــه من التأمل الذى استغرق حواسى بصرت عن يمينى كثيفا من الشجر وبركة ماء بين الأشجار .. وكان ماؤها يبدو فى ظل العتمة راكدا بلا حياة ولمحت نورا ضـــئيلا ينبعث من كـــوخ وراء البركة .

وسرت فى « مدق » بين المزارع ... ولما وقفت على حافة الحقل .. لمحت البيت بين كثيف من أشجار النخيل . وظللت فى مـكانى وانا أؤمـل أن أبصر دلائل الحياة .

كان الهواء رخيا ... وكومـــة من التبن هناك فى حقل محصود .. ثم رأيت

خرافا ونعجـــات . وبقرة مربوطة فى وتـــد .

ولما اقتربت أكثر من البيت رأيت فى العتمة شبح كلب يزمجر .. فانحنيت لأتناول طوبة أرميه بها .. فركبه السعار ودار حول نفسه فى وحشية أرعبتنى . وأحسست بأنى أمام شىء رهيب لا قوة لى عليه .. فوقفت فى مكانى وقد شلت كل حـــركة فى جسمى .. وفى خطف البرق أحسست بأنياب الحيوان تنهش كتفى ووقعت على الأرض .. وفى نفس اللحظـــة دوت طلقة نار .. واغمضت عينى ..

* * *

ولما فتحتهما وجدت رجلا يقف على عكاز فوق راسى .. وكان لا يزال بيده البندقية القصيرة التى أطلق منها النار .

وقال باسما :

ـ لا تخف فقد انتهى ..

وتأملت الحيوان صريعـــا على مدى أمتار .. وكان الرجل الذى صرعه قد استدار ومشى على عكازه بضع خطوات وهتف بشخص فجاء هـذا سريعا .. وتحاملت عليه .. حتى أدخلنى فى رواق البيت .. وغســـل الجرح وحشاه « بالبن » وكان الـــدم لا يزال ينزف وشعرت بضعف شـــديد .. ولابد من الطبيب فى هذه الساعة .. فأرسل نفس الشخص سريعـا ليأتى بطبيب الوحدة المجمعة .

* * *

ورحت أجيل بصرى فى القاعة .. كان الضيف قد أراحنى على دكة تحتها حرام ووضع فوقى بطانيـــة وتحت رأسى وســـادة محشوة بالقطن .. ولـكنى أحسست بالبـــرودة فى جسمى رغم البطانية ورغم أننا فى الصيف .. من فرط الدم الذى نزف منى .. وبعتمة فى مشاعرى .. وبآلام لا حد لوصفها .. وراحت أفـكارى تحوم .. ورحت من فرط التعب فيما يشـــبه النعاس .. حتى صحوت على صـــوت الطبيب .. وهو يضمد الجرح ..

وقلت للطبيب :

ـ أخشى أن يكون الكلب مسعورا .. وفى هـــذه الحالة لابد من الذهاب الى مستشفى الكلب .. والعلاج طويل .. !!

فقال بهدوء وهو يبتسم :

ـ اطمئن انه ليس بكلب ..

ـ ماذا .. ليس بكلب . ؟!

ـ نعم انه وحش ..

وفتحت فمى مدهوشا .. وسمعت صوت الرجال فى الخارج .. ثم رأيتهم من فرجة البـــاب يسحبون شيئا على الأرض ..

وسألت الطبيب :

ـ هل هو الوحش .. ؟

ـ انهـــا البقرة .. صرعت من نفس الرصاصة ...

ـ من نفس الرصاصة .. ؟!

— أجـل . كان لابد من هـــــذا لتعيش .. !

— ولكن الرجل لم يحدثنى بشيء من هذا .. وجعلنى أتصور أنه كلب ..

— هذا هو الفلاح ..

وأخذت أفكر فى البقرة وثمنها انهـا تســاوى ١٥٠ جنيهـــا وربما كانت « عشارا » وتساوى أكثر من هــــذا وصرعها الرجل بيــده .. وربما ليس عنده سواها .. من أجل غريب لا يعرفه .. وما رآه من قبل قط فى حياته .. وعجبت ولكن عجبى زال بعد لحظات من التأمل لأننى أفكر بعقلية رجل المدينة ولا أعرف الفلاح .. انه اعتاد على هذه الأشياء .. وعنـدما تنزل به المصيبة يفـكر فى العوض ولا يقنط من رحمة الله .

انه يتلقى النوازل بقلب صلد .. فهو يزرع الأرض ويأكل زرعه الـدود .. ويزرع الأرض ويصيبه « المن » .. ويزرع ويصيبه « الهلوك » .. ويزرع ويصيب زرعهالعطش .. ويزرع ويغرق زرعه أو يجرفهالسيل أو تحرق أجرانه ولـكنه مع كل ذلك يزرع ويظل يزرع لأنه يعرف بفطرته سر الحياة .. والحياة حركة ومن يتوقف يموت .. ولهذا بقى الفلاح المصرى وعاش فى الأرض .. وكان حتى فى أشـــد عصور الظلام يشعر بقوته .. فى أعمق أعماق نفسه .

ولهذا عندما انقشع الضباب وأزيح التراب انتفض كما هو الآن .

واستفقت من سوانحى على صوت الطبيب وهو يغلق حقيبتـــه الصغيرة ويقول :

— سآتى مرة أخرى فى الضحى .. لأغير على الجرح وأعطيك حقنة ..

— وأستطيع أن أتحرك بعد ذلك ..

— سنرى .. بعد الكشف ..

وتركنى .. وأحسست بالنعاس .. وبأن الألم بدأ يخف ..

ولما فتحت عينى فى اشراقة الفجر .. كان الرجل الذى لا أعرف حتى اسمه يقف على باب القاعة معتمدا على عكازه يقف حارسا وما أحسبه استراح ولا غفى ساعة واحدة فى هذه الليلة ..